الفصل الثانى

بين التفسير والتأويل الصوفى للقرآن الكريم

من المعلوم أن الله تعالى خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه ، وأنزل كتابه على لغتهم ، وإنما دعت الضرورة للتفسير لأن كل من وضع من البشر كتابا ، وضعه ليفهم بذاته من غير شرح ، وإذا بحثنا عن الأسباب الداعية إلى الشروح ، وجدناها تكاد تنحصر فى ثلاثة أمور :

أحدها : كمال فضيلة المصنف ، فإنه لقوته العلمية يجمع المعانى الدقيقة فى اللفظ الوجيز ، فربما عسر فهم مراده ، فقصد بالشرح ظهور تلك المعانى الخفية ، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له .

ثانيها : قد يكون حذف بعض مقدمات الأقيسة ، أو أغفل فيها شروطا اعتمادا على وضوحها ، أو لأنها متعلقة بعلم آخر ، فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه .

ثالثها : احتمال اللفظ لمعان متعددة كالمجاز والاشتراك ودلالة الالتزام ، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه ، وقد يقع فى التصانيف ما لا يخلو منه بشر ،

من السهو والغلط وتكرار الشئ وحذف المهم وغير ذلك ، فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك [1].

---

1. البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم 1/14بتصرف =

ومعلوم أن القرآن إنما أنزل بلسان عربى مبين فى زمن أفصح العرب ، وقد أثار منذ اللحظات الأولى لنزوله أذهانهم ، ودعاهم إلى الالتفات إلي ما جاء به من جديد فى أساليب التعبير والبيان ، وعلقت أفئدتهم وأسماعهم بما جمع من ألفاظ حسان ، ومن ثم وجدنا كتيرا من الصحابة عن معنى بعض الألفاظ ليفهم بها خطاب الله عز وجل ، كما روى عن عبد الله بن مسعود قال :

" لما نزلت : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام/82] قلنا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، َلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بشرك ، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان/13] " [1].

ففسر النبى الظلم بالشرك من خلال تفسير القرآن بالقرآن وشرح آية لأخرى ، وكما روى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله قال : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم

القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف/105] " [2] .

= وانظر فى ذلك أيضا مرويات السنة فى تفاسير المحدثين فى مصر ، بخيته محمد على الإبراهيم الدوسرى ، رسالة دكتوراه مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة رقم (1066) لسنة 1996م ص 34 .

1. الجامع الصحيح المختصر للإمام البخارى رقم (3181) 3/1226.

2. أخرجه البخارى انظر السابق حديث رقم (4452) 4/1759 .

غير أن الصحابة ﷺ [illegible] فى الأكثر .

ولم ينقل إلينا عنهم تفسير القرآن وتأويله بجملته [1] ، لأن إيمانهم العميق بكلام الله دعاهم إلى التصديق بخبره والاستسلام لأمره ، وليس كما صورهم المستشرق جولد تسيهر أن أفهامهم كانت فى طور النمو والاكتمال لأن الإسلام بعد موت النبى كان طفلا يافعا ولم يكن كاملا ناضجا [2] .

فالأمر لم يكن كذلك لأن الله أنزل على نبيه ﷺ قبل موته : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا [المائدة/3] .

وقد دلت على اكتمال الدين وتمام النعمة وأى تشكيك فى ذلك يكشف سوء النية أو دعاوى الجهل ، لقد كان الصحابة [illegible] بحذر شديد ، فى شرح لفظ غريب أو بيان حكمة وموعظة فيه ، فلم يكن فى القرآن ما يصعب عليهم فهمه بوجه عام ، غير أنهم لم يتصدوا للتفسير

---

1. حجج القرآن ، لأحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازى دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير لشمران سركال يونس ، مكتبة كلية دار العلوم رقم 335 سنة 1980م مقدمة التحقيق ص 33 .
2. انظر رأى جولد تسهير فى وصفه لحال المسلمين من الصحابة والتابعين وموقفهم من الحديث والتفسير فى كتابه مذاهب التفسير الإسلامىص 55 ، والعقيدة والشريعة فى الإسلام تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الإسلام ، ترجمة د/ محمد يوسف موسى وآخرين ، دار الكتب العربى ، ط 3 سنة 1959ص 46 وما بعدها .

بشكل تفصيلى تحرجا من القول على الله بلا علم ، ولذا فقد روى عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن قوله تعالى : وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [عبس/31] فقال : " أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم " (1) .

ونقل عن أنس أنه سمع عمر بن الخطاب يقرأ : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس/27:31] .

قال : فكل هذا قد عرفناه فما الأب ؟ ثم نقض عصا كانت في يده فقال : هذا لعمر الله التكلف ، اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب [2] .

وقد يكون صحيحا أن الصحابة [illegible]

[illegible] .[1]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وهو فى الأغلب مشفوع بالسند ، وهناك من تبنى التفسير اللغوى للقرآن ، وقد اتخذه علماء اللغة ميدانا لهم ، وحاولوا التعرف على لغته وتراكيبه النحوية ، وألوان الغريب من الألفاظ فيه ، أهى عربية أصلية أو معربة من لغات البلدان المحيطة بجزيرة العرب والتى أثرت فى لسانهم بحكم التلاصق والتجارة وغيرها ؟

وقد حاولوا أيضا البحث فى المدلول اللفظى ، وصلة اللفظ بالمعنى العام للعبارة ، وغير ذلك من ألوان النواحى اللغوية والأساليب البيانية الواردة فى

---

1. البرهان فى علوم القرآن 1/15بتصرف .

القرآن ، وهناك من نظر إلى الإشارات الرقيقة التى تظهر بين جمل الكلام فظهر التفسير الإشارى للقرآن ، وهو تأويل القرآن على خلاف ظاهره ، لإشارات خفية لبعض المجتهدين من أولى العلم أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدات ، ممن نور الله بصائرهم فأدركوا من أسرار القرآن ما خفى على غيرهم وانقدحت فى أذهانهم بعض المعانى الدقيقة [1] .

فتعددت الأغراض وكثرت مدارس التفسير بصورة توجب فى هذا البحث تقرير الأساس الذى يبنى عليه فهم القرآن ، وضبط منهج التفسير وطريقة التأويل ، ذلك لأننا لم نعدم فى تاريخ التراث الإسلامى استغلال معظم الفرق الإسلامية لهذا السلاح ، أعنى تفسير القرآن أو تأويله بالرأى ، تدعيما لأصول هذه الطائفة أو تلك ، وقد تفاوتت عندهم مراتب التفسير والتأويل بتفاوت البراعة فى استغلال الألفاظ ودلالتها المتعددة ، والانتفاع بالأحاديث النبوية المكملة أو المفسرة [2] .

ومن ثم كان من الضرورى إظهار الوسيلة المثلى التى يبنى عليها فهم القرآن

---

1. من أمثلة التفسير بالمأثور تفسير ابن جرير الطبرى وتفسير ابن كثير ، ومن أمثلة الفسير اللغوى النحوى مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ومعانى القرآن لأبى زكريا يحي بن زياد الفراء ، ومن أمثلة الإشارى ، تفسير أبى عبد الرحمن السلمى ولطائف الإشارات لعبد الكريم القشيرى ، وتفسير القرآن الكريم لعبد الرزاق الكاشانى ، وهو منسوب فى جميع طبعاته إلى محى الدين بن عربى .
2. التصوف طريقة وتجربة ومذهبا ، للدكتور محمد كمال جعفر ، طبعة دار الكتب الجامعية 1970م ، ص 26 بتصرف .

وكيفية تفسيره من خلال ما ورد فى كتب التفسير المختلفة [1] .

فالقرآن كتاب عربى مبين جديد فى أسلوبه معجز ، وهو مع ذلك لم يخرج عن أساليب العرب وعادتهم فى نظم الكلام ، وكان طبيعيا أن يجمع أساليب العرب فى التعبير من قواعد فنية وتركيبية ، ففيه الحقيقية وفيه المجاز وفيه الكناية وغيرها من أساليب العرب ، ومع هذا التشابه الظاهرى بين أساليب العرب فى نثرهم وشعرهم بقيت للقرآن ميزة جعلته المثل الأعلى للبلاغة العربية [2] .

ويمكن أن تتحدد معالم المنهج الصحيح ،لمن أراد التعرف على مراد الله من خطابه فيما يلى :

(1- الاعتماد على تفسير القرآن بالقرآن ، فقد أجمع علماء التفسير على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله ، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من الله عز وجل ولا يصح العدول عن هذا التفسير إلى غيره بعد ظهور مراد الله من الآيات [3] .

ومن أمثلة هذا النوع ، ما جاء مجملا فى موضع جاء مبينا فى موضع آخر كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة/1] فقد

1. انظر للتوسع فى هذه النقطة ، أثر القرآن على منهج التفكير الفلسفى ، محمود السعيد طه الكردى ، رسالة دكتوره بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1979م ، والحافظ ابن كثير ومنهجه فى التفسير إسماعيل سالم عبد العال ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، رقم 125سنة 1977م .
2. أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين الشنقيطى 1/5 .
3. السابق 1/7 .

جاء تفسير قوله : إلا ما يتلى عليكم ، فى آية كريمة أخرى هي قوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ

وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة/3] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ [الطارق/1] جاء تفسير الطارق فى نفس السورة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [الطارق/3:2] ، فلا يصح العدول عن معنى اللفظ بعد أن بينه الله عز وجل إلى أى معنى آخر .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة/37] جاء تفسير الكلمات التى تلقاها آدم ﴿ [illegible] : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف/23] [1] .

ومن الأمثلة أيضا على تفسير القرآن بالقرآن ، أن يذكر شئ فى موضع ثم يقع سؤال عنه وجواب فى موضع آخر يفسره ، كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة/1] ، فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين ؟ ولكنه وقع سؤال وجواب فى موضع آخر يفسر المراد ، وهو قوله تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

1. السابق 1/9 .

إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ [الشعراء/24:23] ، وسؤال فرعون وإن كان فى الأصل عن الرب جل وعلا ، فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴿ [الفاتحة/2] فإنه لم يبينه هنا ، مع أنه وقع سؤال عنه وجواب فى موضع آخر وهو قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿ [الانفطار/19:17] .

ومن أمثلته أيضا أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوى غير مراد بدليل قرآنى آخر على أن المراد غيره ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴿ [البقرة/229] ، فإن ظاهره المتبادر منه أن الطلاق كله محصور فى المرتين ، ولكنه تعالى بين أن المراد بالمحصور فى المرتين خصوص الطلاق الذى تملك بعده الرجعة بقوله : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴿ [البقرة/230] [1].

وعلى الرغم من اشتهار الصوفية بالتفسير الإشارى إلا أن كثيرا منهم اهتم بهذا النوع من التفسير لتوضيح بعض المعانى القرآنية المتعلقة بالجانب الروحى فى الإسلام ، وأسفرت

محاولاتهم عن نتائج إيجابية مثمرة ، نرى مثلا يدلل على ذلك فى كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى (ت:386هـ) وهو يستقصى

---

1. السابق 1/13 ، وانظر المزيد فى تفسير القرآن بالقرآن ، ابن العربى ومنهجه فى التفسير ، لمحمد عبد السلام زغوان ، رسالة ماجستير بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم 267لسنة 1978م .

حقيقة الدنيا معتمدا على تفسير القرآن بالقرآن ، فقال : (لا يمكن لعبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أى شئ هى ، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم ، بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى) [1] .

ويعتمد المكى فى معرفة الدنيا على مجموعة من الآيات يفسر بعضها بعضا ويقارن بينها إلى أن يصل إلى وصف واحد يبين حقيقة الدنيا ، فقوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران/14] ،بين الله لنا فيه أنواع المشتهيات في الدنيا وحصرها فى سبعة أصناف جامعة ، يقول المكى معقبا :

(فهذه سبعة أوصاف هى جملة متاع الدنيا ، وما تفرع من الشهوات رد إلى أصل من أصول هذه الجمل ، فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا ، ومن أحب أصلا منها أو فرعا من أصل فقد أحب بعض الدنيا ، وعلمنا بنص كلام الله أن الشهوة دنيا ، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنيا ، لأنها تقع ضرورات ، فإذا لم تكن الحاجة دنيا ، دل أنها لا تسمى شهوة وإن كانت قد تشتهى) [2] .

---

1. قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، لأبى طالب محمد بن أبى الحسن على بن عباس المكى ، طبعة مكتبة المتنبى ، القاهرة سنة 1310هـ ، 1/2 45.
2. السابق 1/245 .

ثم يجمع المكى بأسلوب رائع بين الآية السابقة وبين آية أخرى تفسر لنا علل الاشتهاء وقد جمعها الله تعالى فى خمسة أنواع فقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ ﴾ [الحديد/20] .

يقول المكى معقبا : (فرد الأوصاف السبعة إلى خمسة معان هى وصف من أحب تلك السبعة) [1] .

ثم يجمع ما سبق من أصناف المشتهيات فى الدنيا وعلل اشتهائها ، ويضيف إليها آية أخرى تفسر الوصف الجامع للحياة الدنيا ، وهى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات/41:37] .

يقول المكى : (فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى فمن نهى نفسه عن الهوى فهو لم يؤثر الدنيا ، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزاهد الذى لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس ولا يحزن على مفقود من ذلك ، يأخذ الحاجة من كل شئ عند الحاجة إلى الشئ ، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة ، ولا يطلب الشئ قبل الحاجة ، فأول الزهد دخول غم الآخرة فى القلب ، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى ، ولا يدخل هم الآخرة حتى يخرج هم الدنيا ، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى) [2] .

والتنيجة المثمرة التى توصل إليها المكى بالدليل ، ومن خلال تفسيره للقرآن

---

1. السابق 1/246 .
2. السابق 1/246 .

بالقرآن ، أن الدنيا هى طاعة النفس للهوى ، وأن الهوى يتعلق بسبعة أصناف جامعة لكل ما

يشتهى فيها ، وأن علل اشتهاء الهوى لتلك الأصناف الدنيوية لن تخرج عن خمسة أسباب ، وحقيقة الزهد فى الدنيا تكمن فى طاعة العبد لله ومعصيته لهواه [1] .

(2- الاعتماد على تفسير القرآن بالسنة ، فقد أجمعوا أيضا على أن ذلك من أشرف أنواع التفسير وأجلها ، لأنه لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من رسول الله ولا يصح أيضا العدول عنه إلى غيره بعد كشف الرسول للمعنى المراد في خطاب الله عز وجل [2] .

ومن أمثلة هذا النوع ، تفسيره الحساب اليسير بالعرض ، أى عرض الأعمال على المؤمن وتذكيره بها فقط ، فعن عائشة زوج النبي أنها كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي قال : "من حوسب عذب ،قالت عائشة : فقلت أو ليس يقول الله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق/ 8] فقال : إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك " [3] .

---

1. تفتقر المكتبة الإسلامية إلى تفسير علمى جاد فى الجانب الروحى ، يكشف عن أعمال القلوب والجوارح وسائر مقامات الإيمان ، وينتهج طريقة أبى طالب المكى فى هذه الجزئية .
2. أضواء البيان 1/20 .

3. أخرجه البخارى فى كتاب العلم (103) 1/51 .

وكذلك تفسير النبى الزيادة فى قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس/26] بالرؤية ، فعن صهيب عن النبي أنه قال في هذه الآية : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، نادى مناد إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، قالوا : ألم تبيض وجوهنا وتنجنا من النار وتدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه " [1] .

وكتفسيره القوة بالرمى ، فعن عقبة بن عامر قال : " سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال/60] ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي " [2] .

وكثيرا ما نرى للصوفية تفسيرا من هذا القبيل فى بعض المواضع من تراثهم لكن ينقصه فى الغالب التثبت وعدم التهاون فى قبول الأخبار الضعيفة والموضوعة ، كما أشار أبو طالب المكى إلى ذلك فقال : (باب ذكر الرخص والسعة فى النقل والرواية .. ولم أعتبر ألفاظ الأخبار ، ولم آل عن سياق المعنى فى كله إذ ليس تحليل الألفاظ عندى واجبا) [3] .

ويذكر أبو القاسم القشيرى نماذج متعددة لهذا التفسير فى رسالته ، فيذكر الآية ، ثم

يأتى ببضعة أحاديث يدلل بها على سياق المعنى ، أو يشرحه بها

---

1. أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير (3105) وصححه الألبانى 5/286 .
2. أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد (1917) 3/1522 .
3. قوت القلوب لأبى طالب المكى 1/176 .

ويوضحه ، فيروى بسنده عن أبى الدرداء حديثا يفسر به معنى قوله تعالى : لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ [يونس/ 64] ، قال : " سألت النبى عن هذه الآية ؟ فقال : (ما سألنى عنها أحد قبلك ، هى الرؤيا الحسنة يراها المرء أو ترى له " [1] .

قال الصابونى : (وكلا هذين القسمين ، تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالسنة ، لا شك فى أنه أعلى أنواع التفسيير ، ولا شك فى قبوله ، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره وكتاب الله تعالى أصدق الحديث ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأما الثانى فلأن الرسول قد بين مهمته القرآن ، وذكر أنها مهمة التوضيح والبيان وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل/ 44] ، فما جاء عن رسول الله من شرح أو بيان بسند صحيح ثابت ، فإنه مما لا شك فيه أنه حق يجب اعتماده) [2] .

1. الرسالة القشيرية 2/714 ، والحديث بهذا اللفظ لم أجده فى كتب السنة ، ولكن معناه ورد فى حديث صحيح ، فمن حديث محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبى قال : (إذا اقترب الزمان ، لم تكد رؤيا المسلم تكذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة ، والرؤيا ثلاثة : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فإن رأى أحدكم ما يكره ، فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس) أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الرؤيا ، برقم (2263) 4/1773 .
2. التبيان فى علوم القرآن ، محمد بن على الصابونى ص 65 .

(3- الاعتماد على ما أثر عن الصحابة

[illegible]

قال الزركشى : (اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد ، والأول : إما أن يرد عن النبى أو الصحابة

[illegible]

[illegible]

([illegible]- [illegible]) [illegible] : [illegible] الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [يوسف/1:2] ، والمفسر لكتاب الله تعالى هنا ، لا يعتمد على المأثور المنقول عن الصحابة [illegible] .

[illegible]

عن النبي قال : " اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم ، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار " [2] ويعنى من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره ، فليتبوأ مقعده من النار) [3] .

1. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/32 .
2. أخرجه الترمذى برقم (2951) وضعفه الألبانى من هذا الطريق 5/ص 199 ولكنه صحيح بغير هذا اللفظ .
3. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/32 .

وهذا التفسير فى الجملة يكون محمودا إذا كان موافقا لغرض الشارع بعيدا عن الجهالة والضلالة متمشيا مع قواعد اللغة ، معتمدا على

أساليبها فى فهم النصوص القرآنية الكريمة ، فمن فسر القرآن ملتزما الوقوف عند هذه الشروط معتمدا عليها فيما يرى من معانى الكتاب العزيز كان تفسيره جائز سائغا [1] .

. التأويل فى القرآن والسنة :

التأويل فى اللغة بمعنى الرجوع والمآل والعود والمصير والعاقبة [2] ، وقد استعمل التأويل فى الكتاب والسنة وبين الصحابة

:

:

[illegible]

[illegible]

: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف/53] .

فاللَّه تعالى يخبرنا أنهم يوم يتحققون من وقوع ما أخبرهم به فى القرآن من جراء تكذيبهم الرسل ، يعلمون يقينا أن ما جاءت به الرسل ، كان هو الحق الذى لا ريب فيه فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة/12] ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف/53] [1] .

ووقوع هذه الأخبار يوم القيامة ، هو تأويل ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد والجنة والنار وما يؤول إليه أمر هؤلاء ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس/ 39] ردا على من أنكر الحقائق التى جاء بها القرآن ، حيث كذبوا به مع جهلهم بتلك الحقائق ، ولما يأتهم تأويله أى مصيرهم وعاقبة أمرهم ، ولكون تأويله لم يأتهم بعد ، قالوا : إن محمدا افتراه وأنشأه وسارعوا فى عدائه [2] .

وتأويل أخبار القرآن ، منه ما مضى كإخباره عن الأمم الماضية وما حدث لهم من أمور ، ومنه ما سيأتى كإنبائه عن أحوال القيامة وما فيها من بعث

1. انظر تفسير الطبرى 12/478 .
2. السابق 15/93 .

ونشور وحساب وجنة ونار والتأويل بهذا المعنى قد استعمل فى نوعى الأسلوب لأن الكلام نوعان :

1- **إنشائى** : وهذا يشتمل على أمور الشريعة التكليفية ، من الأوامر والنواهى ، وتأويل الأمر فى هذا النوع تنفيذه ومن هنا قال السلف : إن السنة هى تأويل الأمر ، وقالت عائشة أم المؤمنين رضى اللّه عنها : " كان رسول اللّه يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللّهم وبحمدك ، اللّهم اغفر لى يتأول القرآن " تعنى أنه كان ينفذ فى سجوده الأمر فى قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [النصر/3] [1] .

2- **خبرى** : وهذا يشتمل على إخبار اللّه عن أمور الغيب ، كالقيامة وأحوالها وأهوالها ، ومن هذا الباب الكلام فى ذات اللّه وصفاته ، وتأويل هذا النوع هو عين المخبر به إذا وقع ، وليس تأويله فهم معناه ، وهذا النوع لا يعلم حقيقته كيفا ولا قدرا إلا اللّه سبحانه وتعالى ، لأن اللّه يقول : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة/ 17] ،فإن اللَّه أخبر أن فى الجنة خمرا ولبنا وعسلا ، ونحن نعلم أن حقيقة هذه الأشياء ليست مماثلة لحقيقة ما نراه منها فى الدنيا ، بل بينهما تباين عظيم مع وجود نوع من التشابه فى الأسماء ، من قبيل المواطأة أو المشاركة فى الأسماء ، ولكن هناك خاصية لتلك الحقائق فى ذاتها ، لا سبيل لنا إلى إدراكها فى الدنيا لعدم وجود نظيرها عندنا ومعرفة هذه الحقائق على ما هى عليه ، هى تأويل ما أخبر

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب الأذان (784) 1/281.

اللَّه به فى القرآن ، وهذا هو التأويل الذى اختص اللَّه بعلمه ، ولا سبيل لأهل العلم إليه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ ﴾ [آل عمران/7] .

فيجب الوقوف على لفظ الجلالة بهذا الاعتبار ، ولكن يجب التنبه إلى أن جهلنا بحقائق هذه الأشياء فى ذاتها لا ينفى علمنا بالمعنى الذى خوطبنا به فى ذلك ، لوجود الفرق الكبير بين علم المعنى وبين علم التأويل ، والكيفية التى دلت عليها النصوص [1]

وقد استعمل عبد اللَّه بن مسعود ﷺ التأويل بالمعنى الأول فى الخبر من الكلام وهو وقوع المخبر به ووجوده ، سواء كان ذلك فى الماضى ، كالقصص التى أخبرنا عنها القرآن ،

أو فى المستقبل كأخبار القيامة والجنة والنار ، فقد روى أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [المائدة/105] .

فقال : " ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم ، فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ، ثم قال : إن القرآن نزل حيث نزل ، منه آيات قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آيات وقع تأويلهن على عهد النبى ، ومنه آيات وقع

1. انظر رسالة الإكليل فى المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ص 21:10 بتصرف ، وانظر أيضا ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ، للدكتور محمد السيد الجليند ص 151 وما بعدها ، وانظر أيضا البرهان فى متشابه القرآن للكرمانى تحقيق ودراسة ، منصور محمد منصور الحفناوى ، رسالة ما جستير بمكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة رقم 200 لسنة 1975م 1/ 72 .

تأويلهن بعد النبى بيسير ، ومنه آيات يقع تأويلهن يوم القيامة ، وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعا ، ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ،فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعا ، وذاق بعضكم بأس

بعض ، فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويلها " [1] .

وعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : " قرأ رسول اللَّه هذه الآية : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ [آل عمران/7] قالت : فقال رسول اللَّه : فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمّى اللَّه فاحذروهم " [2] .

المعنى الثانى : ورد التأويل فى الكتاب والسنة على معنى التفسير والبيان والمفسرون يقصدون به كشف المعنى وتوضيح مراد المتكلم ، وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه ويرد باطله ، وحين قرأ عبد اللَّه بن عباس [illegible]

[illegible]

. [illegible] .

. [illegible] (1) [illegible] .

" [illegible] : [illegible] " [illegible] .

[illegible] له : " اللَّهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " [2] وكل ما ورد عن ابن عباس من أنه يعلم تأويل القرآن ، فيجب حمله على معنى التفسير والبيان ولا يجوز القول بأنه يعلم حقائق الغيب ، أوتأويل الأخبار الواردة عنها فى القرآن لأن ذلك من الغيوب التى استأثر اللّه بعلمها .

والطبرى فى تفسيره قد استعمل التأويل أيضا فى معنى التفسير والبيان ، إذ يقول : تأويل الآية عندنا كذا ، ثم يشرع فى تفسيرها ، وقال أهل التأويل فيها كذا ثم يحكى أقوال المفسرين من السلف فيها ، والأشبه بتأويل الآية كذا ومراده بكل ذلك تفسير الآية وتوضيح معناها ، ونظرا لكثرة استعمال التأويل فى هذا المعنى عند السلف ولشيوعه بينهم اختلط بمعنى التفسير ، وأصبح كل منهما يستعمل حيث يستعمل الآخر ، فإذا كان مقصدهم بالتأويل هو التفسير وتوضيح المعنى المخاطب به فإنه يجوز الوقف على قوله : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [آل عمران/7] بعطف الراسخين فى العلم على لفظ الجلالة .

---

1. تفسير ابن جرير الطبرى 6/170 ، وتفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص 120 وتفسير ابن كثير 1/32 .
8

2. رواه الإمام أحمد بلفظه 1/ 266 ، والحديث صحيح ، أخرجه البخارى فى كتاب المناقب بلفظ : (اللَّهم علمه الحكمة) رقم (3546) 3/1371 ، وابن ماجه فى المقدمة بلفظ : (اللَّهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب) رقم (164) 1/58 والطبرانى فى المعجم الكبير 1/84 .

. **التأويل فى اصطلاح المتأخرين :**

اشتهر التأويل فى عرف المتأخرين من الفقهاء ورجال الأصول ، بمعنى صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى تحتمله ، إذا كان هذا المعنى الذى تصرف إليه الآية موافقا للكتاب والسنة ، وقد اشتهر هذا التأويل فى كتب الأصول والفقه وكأنه هو المقصود عند إطلاق كلمة التأويل ، وأصبح من الشهرة بحيث تجاهلوا بجانبه المعنى اللغوى العام الوارد فى القرآن والسنة ، وقد استخدم المفسرون من المتكلمين وكثير من الصوفية والباطنية التأويل بهذا المعنى فى تفسير مذاهبهم [1] .

وربما يعرف هذا التأويل فى الاصطلاحات المتأخرة بالمجاز اللغوى المقابل للحقيقة ، وهذا النوع يقبل بشروط معينة ، أو أحكام موضوعة لمعرفة الدلالة المجازية للألفاظ ، ولابد من الالتزام بها حتى يقبل ، ويتمثل أهمها فيما يلى :

1- بيان أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازى ، وأن ذلك المجاز مما يراد من

اللفظ ، لأن لغة القرآن يجب أن تفسر فى ضوء العرف اللغوى العام الذى كان سائدا فى عصر نزوله .

2- أن يكون هناك دليل قاطع فى وجوب صرف اللفظ وتأويله من الحقيقة إلى المجاز ، لأن المتأخرين اشترطوا فى التأويل وحمل اللفظ على المعنى المجازى ، وجود الدليل الصارف له عن الحقيقة ، ولا بد أن ذلك الدليل

---

1. انظر بتوسع ، قضية التأويل عند الإمام ابن تيمية ، رسالة ماجستير للدكتور محمد السيد الجليند ، دار العلوم جامعة القاهرة رقم 113، 1970م ص153 وما بعدها .

قاطعا فى دلالته .

3- لابد أن يسلم الدليل عن المعارض ، فإذا قام دليل قرآنى أو فطرى يبين أن الحقيقة مراده ، امتنع تركها ، فإذا كان الدليل نصا فى الدلالة ، لم يلتفت إلى نقيضه ، وإن كان ظاهرا ، فلابد من المرجح ، وعدم علمنا بوجود الدليل المعارض لا يدل على عدم وجوده ، بل قد يكون هناك دليل يمنع الصرف إلى المجاز ولكن لا نعلمه .

4- إذا تكلم الرسول بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، فلا بد أن يقرن بخطابه دليلا آخر يبين أن الحقيقة غير مرادة ، ولا سيما فى

الخطاب عن الأمور الغيبية ، التى يطلب من العبد فيها الإيمان بها ، والاعتقاد بما جاءت به وفقط ، وهذا ما يسميه علماء البيان بالقرينة المانعة من إيراد المعنى الأصلى للفظ ، وإذا لم ينصب لهم الرسول دليلا على ذلك ، فيكون خطابه للأمة من باب التلبيس والتدليس وليس من باب الهدى والبيان والرسل يتنزهون عن ذلك ، وإذا أقام دليلا على إرادة المجاز لا الحقيقة فلابد أن يكون دليلا بينا وواضحا ظاهرا بنفسه ، ولا يجوز أن يحيلهم فى ذلك إلى دليل خفى لا يفهمه إلا بعض الناس وخاصتهم ، لا سيما إذا كان ذلك فيما يتعلق بالأمور الإلهية التى هى أساس الاعتقاد ، حتى لا يكون خطابه فى ذلك أشبه بالأحاجى والألغاز [1] .

---

1. رسالة الحقيقة والمجاز لابن تيمية ص9 ، وانظر منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز إعداد محمد الأمين المختار الشنقيطى ، تحقيق أبو حفص سامى بن العربى =

فإذا اختل واحد من هذه الشروط سقط الإفهام والبيان من الخطاب ، لأن الخطاب فائدته تتوقف على أمرين :

الأول : حسن بيان المتكلم عما فى نفسه من المعانى بالألفاظ الدالة على ذلك .

الثانى : تمكن السامع من الفهم وحسن تقبله للخطاب ،فإذا افتقد أحد هذين الأمرين لم يحصل المطلوب ولا يكون للخطاب فائدة ما وكان الخطاب نوعا من العبث [1].

. **أنواع التأويلات الباطلة :**

ويمكن حصر أنواع التأويلات الباطلة الممقوتة ، التى تخالف مقتضى اللغة فيما يأتى :

[1] -كل تأويل لا يحتمله اللفظ فى أصل وضعه ، وكما جرت به عادة الخطاب بين العرب ، كتأويلهم لفظ الأحد فى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص/1] بأنه المجرد من الصفات ، أو هو الذى لاجزء له ولا قسيم له فإن هذا غير معروف فى لغة العرب .

[2] - كل تأويل لا يحتمله اللفظ بحسب التركيب الخاص من تثنية وجمع وإن جاز أن يحتمله اللفظ فى تركيب آخر ، كتأويلهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ

= مكتبة السنة ص 26: 60 بتصرف ، وانظر أيضا المجاز فى القرآن بين مثبتيه ونافيه إعداد عبد السلام محمد وفا ، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة سنة 1986م .

1. انظر قضية التأويل عند الإمام ابن تيمية ص 181 .

يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص/75] بأن اليدين هما القدرة أو النعمة ، فإن لفظ اليد مفردا وعند إطلاقه قد يحتمل أحد هذين المعنين ، أما وهو فى صيغة التثنية ، وفى هذا التركيب بالذات ، فإنه لم يرد فى لغة العرب بهذا المعنى .

[3] - كل تأويل لا يحتمله السياق المعين ، وإن جاز فى غيره ،، كتأويلهم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [الأنعام/158] ، بأن إتيان الرب هنا معناه إتيان بعض آياته ، أو إتيان أمره ، فهذا التأويل لا يحتمله السياق بحال من الأحوال .

[4] - كل تأويل لا يؤلف استعمال اللفظ فى ذلك المعنى المراد فى لغة المخاطب ، وإن كان مألوفا كاصطلاح خاص ، كتأويل لفظ الأفول بالحركة فى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ [الأنعام/76] ، فإن هذا غير معهود فى لغة العرب ، بل المعهود الأفول بمعنى الغياب ، فلا يجوز حمل آية من القرآن عليه لأنه نوع من التلبيس .

[5] - التأويل الذى لا دليل عليه من سياق أو قرينة ، لأن هذا لا يقصده المتكلم الذى يريد فى خطابه هداية الناس والبيان لهم [1] .

1. مقدمة فى أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 43 وما بعدها .

- **تفسير الصوفية للقرآن :**

عرف التفسير الصوفى بالتفسير الإشارى ، ويتمثل على زعمهم فى أن يرى المفسر معنى آخر غير المعنى الظاهر ، ربما تحتمله الآية الكريمة ولكنه لا يظهر للعامة من الناس ، وإنما يظهر لخاصتهم ومن فتح الله قلبه وأنار بصيرته وسلكه ضمن عباده الصالحين ، الذين منحهم الله الفهم والإدراك ، وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبى الذى ينال بالبحث والمذاكرة وإنما هو من العلم الوهبى الذى هو أثر التقى والاستقامة والصلاح ، كما قال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/282] .

والتفسير الصوفى يعتمد أساسا على أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، ويقصد بالظاهر الشريعة وبالباطن الحقيقة ، وعلم الشريعة علم المجاهدة ، وعلم الحقيقة علم الهداية ، وعلم الشريعة علم الآداب وعلم الحقيقة علم الأحوال ، وعلم الشريعة يعلمه علماء الشريعة وعلم الحقيقة يعلمه العلماء بالله ، يقول

السلمى فى مقدمة تفسيره عن الباعث لإقدامه على كتابة تفسير القرآن :

(لما رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن ، من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصل وناسخ ومنسوخ ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان أهل الحقيقة إلا آيات متفرقة ، أحببت أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى) [1] .

---

1. تفسير القرآن الكريم على الطريقة الصوفية ، دراسة وتحقيق حقائق التفسير لأبى =

ويقول سهل بن عبد الله التسترى فى تفسيره ، وهو أول ما ظهر للصوفية من تفسير للقرآن : (ما من آية فى القرآن إلا ولها أربعة معان ، ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم والحد حلالها وحرامها والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل ، فالعلم الظاهر علم عام ، والفهم لباطنه والمراد به خاص) [1] .

وقد ظهر أيضا تفسير ثالث للعبد الكريم القشيرى سلك فيه مسلك الصوفية فى إدراك الإشارات التى يراها الصوفى خلف آيات

القرآن ، وسماه لطائف الإشارات ، قال عن الباعث لتأليفه :

(وكتابنا هذا يأتى على طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة إما من معانى قولهم أو قضايا أصولهم ، سلكنا فيه طريق الإقلال خشية الملال مستمدين من الله تعالى عوائد المنة ، متبرئين من الحول والمنة مستعصمين من الخطأ والخلل ، مستوثقين لأصوب القول والعمل) [2] .

ولم يظهر فى تاريخ التفسير الإشارى حتى القرن الخامس ، أهم من حقائق التفسير للسلمى ، ولطائف الإشارات للقشيرى وإن كان القشيرى قد استفاد

= عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدى السلمى رسالة ماجستير ، إعداد سلمان نصيف جاسم التكريتى ، مكتبة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة سنة 1975م ص 22 .

1. تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله ، مطبعة السعادة ، سنة 1908م ص 61 .
2. لطائف الإشارات ، للقشيرى ، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، سنة 1981م ، 1/41 .

من السلمى فائدة كبرى واقتبس منه كثيرا من آرائه [1] .

وقد ظهر تفسير القرآن المنسوب لابن عربى ، ولكنه فى الحقيقة للكاشانى السمرقندى ،

ويعد هذا التفسير أهم تفسير إشارى بعد اللطائف ، قال مؤلفه فى مقدمته : (ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ومطلع ، فالظهر هو التفسير ، والبطن هو التأويل ، والحد هو ما تتناهى إليه الفهوم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام) [2] .

ويمكن القول باستقراء التفسيرات الصوفية السابقة أن السمة الغالبة فى التفسير الإشارى لدى الصوفية تتمثل فيما يلى :

(1- أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر للعوام والباطن لا يدركه إلا الخواص وإدراك الخواص مستمد من فيض إلهى ينير بصائرهم ، ويكشف لهم على زعمهم عن معارف لدنية مباشرة .

(2- أن العلم بالقرآن على هذا النحو يفترق عن العلوم القرآنية الأخرى فى بدايته وفى طرائقه وفى غاياته ، فضلا عن أنه يفترق عن سائر العلوم بضرورة العمل ، فالعالم لابد أن يكون عاملا وعمله هو جهاده ورياضاته التى تؤدى إلى

---

1. تاريخ أدبيات در إيران للدكتور ذبيح الله صفا الطبعة الثالثة سنة 1339هت 2/257 .

2. تفسير ابن عربى 1/4 وانظر تحقيق نسبته فى تفسير المنار 1/18 ، ومحى الدين بن عربى مفسرا ، إعداد حامد محمود الزفرى ، رسالة دكتوراه ، بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر القاهرة سنة 1972م ص 174.

صقل إرادته وشحذ همته وتنقية مرآته الباطنية من كل شائبة ، فالتفسير عموما ليس تفسيرا مباشرا ، بل يسلك تزكية النفوس وتطهير القلوب والحث على التحلى بالأخلاق الفاضلة .

(3 - أن التفسير الإشارى وإن كان يعتمد على ما وراء العبارة الظاهرية إلا أنه لم تخل من بعض ما نقل من الآثار على النحو المذكور فى التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأى بالطريقة الاستنباطية ، أو تفسيرات تعتمد على معانى الألفاظ والتفسيرات بلاغية .

(4- تتعرض هذه التفسيرات لكثير من المعانى والمصطلحات الصوفية التى تكشف عن طريقتهم وتجربتهم ، لا سيما أنهم يوجهون الآيات كشواهد لهذه الرموز والمصطلحات .

(5- ومع ما فيها من معانى تقبل بصعوبة ، أو يلتمس لها وجها تحمل عليه بمشقة ، إلا أن هناك معان مشكلة تصل فى بعض الأحيان إلى الكفر والزندقة .

(6-لم تسلم هذه التفسيرات من الإسرائيليات ، والاستشاد بغير القرآن والسنة ، ولم تتبع الدقة فى تحرى ثبوت الحديث ،

أو مراعات التعليق على الأسانيد ، وكذلك لم تخل من فكر باطنى [1].

1. انظر الموافقات للشاطبى 3/403 وما بعدها ، وانظر أيضا فى التفسير الصوفى للقرآن إعداد حسن عبد التواب رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف القاهرة ، سنة 1972م ص 144 .

. **أدلة المجيزين للتفسير الإشارى :**

استدل الصوفية بكثير من الآيات القرآنية العامة ، التى تدعو إلى التدبر وفهم كتاب الله بالتأمل وحسن الاستماع ، كقوله تعالى : ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة/3:1] وكقوله :

﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء/78] ، والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام وكقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد/24] حيث دل على أن ظاهر المعنى شئ وهم عارفون به لأنهم عرب ، والمراد هو شئ آخر وهو الذى لا شك فيه أنه من عند الله ، والتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد ، وذلك ظاهر فى أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن ، فلم يحصل منهم تدبر ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ق/37] ، وقال أبو سعيد الخراز : (أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط ، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق/37] [1] .

ويواصل السراج الطوسى استدلاله على التفسير الإشارى فيقول : (وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر/18] فالقرآن كله حسن

1. اللمع فى التصوف للسراج الطوسى ص 113 .

ومعنى اتباع الأحسن ، ما يكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع وإلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط) [1] .

ومن السنة يستدلون بقوله : " لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع" [2] ، فلفظ الظاهر والباطن على زعمهم قرآنيان ، ولا يمكن الاعتراض على الفكرة القائلة بأن فى القرآن ناحية واضحة تدرك فى ضوء الاشتقاق ، وأن به ناحية أخرى ربما كانت أخفق وأعمق بالنسبة للأولى ، لأن هذه الفكرة يمكن أن تطبق فى الواقع على أى نص فكل نص له ناحية قريبة مباشرة تدرك بلا عناء ، وناحية أخرى تحتاج إلى تعمل وجهد فى استيعابها وفهمها ، كما لا يمكننا أن ننكر أن الحقيقة

الإنسانية الثابتة تشير إلى عدم تساوى الناس فى الفهم والإدراك ، وقد ظهرت تلك الحقيقة فى حياة الرسول وصحابته

.

.

.

.

 ولكنه أثر موقوف على عبد الله بن مسعود ولفظه قال : " إن القرآن ليس منه حرف إلا له حد ولكل حد مطلع " انظر معجم الطبرانى الكبير رقم (8667) 9/136 .

3. انظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا للدكتور محمد كمال جعفر ص 157 بتصرف .

علمتم قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، قال : وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ، فقال : ما تقولون في : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا [النصر/2:1] حتى ختم السورة ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم : لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئا ، فقال لي : يا بن عباس أكذاك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟

قلت : هو أجل رسول الله أعلمه الله له : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [النصر/4:3] قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم " [1] .

والشاهد هنا أن ابن عباس فهم من خطاب الله معنى خفيا وراء ظاهر الألفاظ لم يدركه عامة الصحابة فى مجلسهم ، وهذا يشبه عمل الصوفية فى التفسير الإشارى .

ومثله أيضا ما روى عن أبي سعيد الخدري جلس على المنبر فقال : " إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فعجبنا له وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده ، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا به .

وقال رسول الله : إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ، ولو

1. أخرجه البخارى برقم (4043) 4/1563 .

كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام ، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر "[1] .

فأبو بكر الصديق فهم بطريق الإشارة ما لم يفهمه عامة الصحابة وأسعد بذلك رسول الله وكان الأمر كما قال .

وعن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمَصَاحِفِ ، وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَعْزِلُ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ وَيَتوَلاهَا رَجُلٌ وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ ، يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ اكْتُمُوا الْمَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [آل عمران/161] فَالْقُوا اللهَ بِالْمَصَاحِفِ [2] .

فالغلول ، وهو إخفاء الغنائم طمعا قبل تقسيمها فعل المجرمين ، وظاهر الآية ورد فى عقابهم وفضحهم يوم القيامة ، وقد استخدمها ابن مسعود [illegible] [3] .

1. أخرجه البخارى برقم (3691) 3/1417 .
2. أخرجه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن (3104) 5/282 حسن صحيح .
3. السابق 5/ 282.

. آراء العلماء فى التفسير الإشارى :

اختلف العلماء فى التفسير الإشارى ، وتباينت فيه أراؤهم فمنهم من أجازه ومنهم من منعه ، ومنهم من عده من كمال الإيمان ومحض العرفان ، ومنهم من اعتبره زيغا وضلالا وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى .

والواقع أن الموضوع دقيق يحتاج إلى بصيرة وروية ونظرة إلى أعماق الحقيقة ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى والتلاعب فى آيات الله كما فعل الباطنية والشيعة [1] ، فيكون ذلك من قبيل الزندقة والإلحاد ، أو الغرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى يعز أن يحيط به بشر إحاطة تامة ، وأن كلامه تعالى وضعت فيه مفاهيم وأسرار ودقائق وعجائب لا تنقضى على مدار الأزمان ، ويتوالى إعجازه مرة بعد أخرى ، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان ، كما نسب السيوطى إلى ابن عباس رضى الله عنهما : " إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون ، لا تنقضى عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال

1. انظر للمقارنة والتوسع فى هذه النقطة ، الفكر السياسى عند الباطنية وموقف الغزالى منه ، إعداد أحمد عرفات أبو الحسن القاضى رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة 1988م ، الفصل الخاص بحيل الباطنية وأصناف المتبعين لهم ص 217:19 . ومذهب التأويل عند الشيعة الباطنية ، دراسة تحليلية نقدية ، إعداد محمد محمود عبد الحميد رسالة ماجستير بالموضع السابق سنة 1983، وانظر أيضا الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ومنهجهم فى التفسير إعداد محمد محمد إبراهيم العسال ، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة سنة 1981م .

وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء " [1] .

ويمكن أن نعرض أهم آراء العلماء التى نسترشد بها فى تحديد شروط قبول التفسير الإشارى فمن ذلك :

(1- رأى ابن الصلاح : ينقل ابن الصلاح عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر أنه قال : (صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن هذا تفسير فقد كفر) ثم يعقب على ذلك بقوله : (وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شئ من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ولا ذهب به مذهب

الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير ومن ذلك ، قتال النفس فى الآية المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة/123] فكأنه قال : أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإلهام والإلباس)[2] .

(2- رأى الشاطبى : يقسم الشاطبى الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الطاهرة وأصحاب البصائر إذا صحت على كمال شروطها على ضربين :

---

1. الإتقان فى علوم القرآن 2/185 .
2. انظر فتاوى ابن الصلاح فى التفسير والحديث والأصول والفقه ، تحقيق الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى ، الطبعة الأولى ، دار الوعى ، سوريا 1403هـ ، 1/29 .

1- ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات ، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق من البصيرة فى حجب الأكوان من غير توقف ، فإن توقف فهو غير صحيح حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك .

2- ما يكون انفجاره من الموجودات كليا أو جزئيا ويتبعه الاعتبار فى القرآن .
فإن كان الأول فهذا الاعتبار صحيح وهو معتمد على فهم باطن القرآن من غير إشكال ، وإن كان الثانى فالتوقف على اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم وأخذه على إطلاقه ممتنع لأنه بخلاف الأول [1] .

(3- رأى تاج الدين بن عطاء الله : ويعتبر ابن عطاء الله تفسير الصوفية لكلام الله ورسوله بالمعانى الغريبة ، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان ، وثمة أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء فى الحديث لكل آية ظهر وبطن ، فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله ورسوله ، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقرون بالظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم [2] .

(4- رأى حاجى خليفة : يرى حاجى خليفة أن التصوف علم يعرف به

---

1. الموافقات فى أصول الشريعة للإمام الشاطبى ، المطبعة التجارية بمصر ، 3/272 .

2. الإتقان للسيوطى 2/314 ، والأثر المذكور موقوف على عبد الله بن مسعود [illegible] .

[illegible]

(1)

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

([illegible] :

[illegible] : ([illegible] ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت/42] وقال فيه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت/42] ، وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورؤيته ، وعلماء الرسوم يعلمون ذلك ، فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه ، وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم فيكون شرحه أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل) [2] .

(7- رأى أبى حامد الغزالى :

1. العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازانى ص 143 .
2. الفتوحات المكية 1/280 ، وينبغى التنبيه على أن ابن عربى يقول هذا الكلام كخطاب لأهل الظاهر ، أما حقيقة مذهبة ، فكلام الصوفية وغيرهم فى القرآن وغيره هو كلام الله على اعتبار أنه تجلى فى هذه التعينات فتنبه ، انظر المزيد عن رأى ابن عربى فى التفسير الإشارى للقرآن ، محى الدين بن عربى مفسرا ، إعداد حامد محمود الزفرى ، رسالة دكتوراه ، بمكتبة كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، القاهرة سنة 1972م .

يقول الغزالى : (لا تظنن فى ضرب الأمثال ، فرصة منى فى رفع الظواهر واعتقادا فى إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه/12] حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بعين عوراء إلى أحد العالمين ، وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما ، فلم يفقهوا وجهه ، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية ، فالذى يجرد الظاهر حشوى ، والذى يجرد الباطن باطنى ، والذى يجمع بينهما كامل ، بل أقول : موسى فهم من خلع النعلين اطرح الكونين ، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع النعلين وباطنا بخلع الكونين) [1] .

(8- رأى الأستاذ محمد عبد العظيم الرزقانى :

يرى الزرقانى أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر

، فدخل فى روعهم أن الكتاب والسنة بل والإسلام كله ما هو إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات ، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخييلات ، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة ، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية فى فهم أبلغ النصوص العربية ، كتاب الله وسنة رسوله والأدهى من ذلك أنهم يتخيلون ويخيلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة ، الذين أدركوا الغاية واتصلوا بالله اتصالا

---

1. مشكاة الأنوار ، لأبى حامد الغزالى ، تحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى ، الدار القومية القاهرة 1964م ، ص 33 ، وتفسير الغزالى لخلع النعلين باطنا بخلع الكونين ، تعسف كبير ، فليس فى دلالة اللغة ولا قرينة الخطاب اطلاق الكونين وإرادة النعلين

أسقط عنهم التكليف ، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ما دموا فى زعمهم مع رب الأرباب ، وهذا لعمر الله هو المصاب العظيم الذى عمل له الباطنية ، كيما يهدموا التشريع من أصوله ويأتوا بنيانه من قواعده ، فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع فى هذه الشباك ، ونشير عليهم أن ينفضوا من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ، لإنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن

حدود الضبط والتقييد ، وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل فالأحرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق وأن يفر بدينه من هذه الشبهات ، وأمامه فى الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات) [1] .

(9- رأى الأستاذ محمد حسين الذهبى :

يقرر الذهبى أن الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن ، ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربى ، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر ، غير أن المعانى الباطنية للقرآن ، لا تقف عند الحد الذى تصل إليه مداركنا القاصرة بل هى أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور [2] .

يقول : (أما المعنى الباطن فلا يقف على جريانه على اللسان وحده بل لا بد فيه مع ذلك إلى نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان ، يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير ، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول

---

1. مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ، طبعة عيسى البابى 1953م ، 1/558 .
2. التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ، دار الكتب الحديثة 3/22 .

اللفظ القرآنى) [1] ويقول أيضا : (أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة فقد اعترفوا

بظاهر القرآن ولم يجحدوه كما اعترفوا بباطنه ولكنهم حين فسروا المعانى الباطنية خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع) [2] .

والخلاصة فى رأى الذهبى أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن مزلة قدم لمن يعرف مقاصد القوم ، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم ولم يذيعوها على الناس فيوقعهم فى حيرة واختلاف ، منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه ، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافها ربما كذب بها أو أشكل عليه ومنهم من يكذبها على الإطلاق ويرى أنها تقول على الله وبهتان ، إذن ليتهم ما فعلوا ذلك ، إذن لأراحونا من هذه الحيرة وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد فى آيات الله [3] .

(10 - رأى الدكتور محمد كمال جعفر :

ويرى الدكتور جعفر أنه يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أنه من الطبيعى أن لا يقف الصوفى عند المعانى التقليدية فى أى من القرآن أو السنة قولا وعملا ، لأنه ليس كالفقيه أو العالم الذى يعتمد على النظر العقلى فحسب ، لأن ذلك لا

---

1. السابق 3/22 .

2. السابق 3/22 .
2. السابق 3/42 .

يشبع رغبته ولا يمد روحه بالزاد الضرورى ، بل إنه يتعمق إلى معان وراء المعنى الظاهر المباشر ، وإن لم يكن من الضرورى أن تكون هذه المعانى العميقة متناقضة مع تلك المعانى الظاهرية ، ويشير الدكتور جعفر إلى نقطة هامة ، وهى أن القرآن بالنسبة للصوفى يحمل حقيقتين متساويتين فى الأهمية ، فهو من جهة وحى تاريخى اتخذ وضعه فى الزمان والمكان المحددين ، وهو من جهة أخرى النبع الفياض الذى لا تنفد حقائقه الإلهية الصادرة عن الله جل جلاله ، وهو لا متناه لأنه كلام الموجود الذى لا يتناهى ، والمعانى الباطنية لكلماته غير متناهية كذلك أيضا [1] .

كما أن الصوفى المتأمل قد يصل إلى مرحلة يدرك فيها أعمق المعانى الروحية فى القرآن ، وهذه الفكرة فى حد ذاتها بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى قد تثير صعوبات ، بحيث أنها تؤدى إلى أن يكون تفسير القرآن مختلفا باختلاف الذوات المشتركة فيها أى أن يكون الموقف موقفا ذاتيا مما ينتج بدوره تفسيرات متعارضة ويؤدى إلى اضطرار كبير ، ولكن الحقيقة أن الصوفية فعلا يرون أن تعدد التفسيرات أمر حتمى ، لأن معانى القرآن

لا نهائية وتتكشف لكل صوفى حسب طاقته الروحية وحسب فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس فى ذلك أى ضير ما دام هذا متصلا بالمعانى الكمالية التى لا تتجاوز حدود المعانى المباشرة المتفق عليها [2] .

---

1. التصوف طريقا وتجربة ومذهبا 1970م ص 157 .
2. من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التسترى ،ص 109 .

. أراء المستشرقين فى التفسير الصوفى :

وقبل النظر والتعقيب على الآراء السابقة فى التفسير الإشار لنستخلص منها ما يمكن أن نصل إليه فى تقرير شروط التفسير الإشارى ، تجدر الإشارة إلى رأى بعض المستشرقين الغربيين من قبيل المقارنة المؤثرة فى توجيه الآراء إلى الأفضل .

فنرى المستشرق نكلسون أستاذ مدرسة كمبردج الاستشراقية يصرح بأن التفسير الصوفي يشابه التفسير الشيعى وكلاهما عنده من التأويلات المغرضة التى تتلاعب بالنصوص ، فيقول :

(استطاع الصوفية متبعين فى ذلك الشيعة ، أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلا يلائم أغراضهم على أن كل آية بل كل كلمة من القرآن تخفى وراءها معنى باطنيا

لا يكشفه الله إلا لخاصة العباد ، الذين تشرق هذه المعانى فى قلوبهم وفى أوقات وجدهم ، واعتبروا
أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار علم الباطن المودعة فى القرآن والحديث ، وأنهم استعملوا فى التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والإشارة ، التى لا يقوى على فهمها غيرهم من المسلمين)[1] ، وربما كان هذا الموقف للمستشرق نيكلسون بسبب ما أشارت إليه الباحثة [illegible] أن المستشرقين فى القرن التاسع عشر قد عرفوا المصادر الصوفية المتأخرة والتى لا تصور التصوف فى مراحله الأولى[2] .

---

1. فى التصوف الإسلامى وتاريخه لرينولد نكلسون ، ترجمة الدكتور أبى العلا عفيفى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ص 76 .

2. [illegible]

فحكم نيكلسون على جميع الصوفية فى تفسيرهم للقرآن بما رآه من الغلو فى التفسير الإشارى عند المتأخرين ، ولذا أدرك نيكلسون بعد ذلك استحالة وضع حكم منصف للتصوف قبل أن تعد مصادره الأولى إعدادا علميا دقيقا ، وقد تولى هو زمام المبادرة فى نشر المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها وترجمتها وتحليل مادتها[1] .

ويرى المستشرق جولد تسهير أن العمل بما روى عن عبد الله بن مسعود : (من أراد علم الأولين والآخرين فليتثور القرآن) لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر ، فالأمور كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها ، وفيه رموز ودلالات لكل ما أشكل من ذلك على النظار ، ومهمة التفسير هى استخراج كل ذلك العلم من الكتاب والتعمق فى تفصيله ، ووراء هذه المعانى الظاهرة يحتجب المعنى الباطن وتسكن أسرار القرآن التى ينبغى البحث عنها بتغلغل ونفاذ أعمق من ذلك ، ولن يترتب على ذلك القضاء على ظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه ، وإذا كان التفسير الصوفى فيه تجاوز للتفسير المنقول المحدود فى حرية لا توقفها قيود ، ومع استخدام أمثلة بعيدة المدرك والمورد فى الغالب فى الكشف عن أفكار الورى إلا أن أثرث فى التغلغل إلى ما وراء المسموع

---

1. انظر الاتجاهات الحديثة فى دراسة التصوف الإسلامى ، للدكتور محمد عبد الله الشرقاوى ص 19وما بعدها .

والمنقول من المعانى المقصودة فى كلام الله والمكنونة فى حجبها والتى لا يعقلها إلا العالمون [1].

ويرى المستشرق هنرى كوربان أن المستمع للكلام الإلهى يحق له أن يفهم منه كل شئ ، وفى أى حقل من المعرفة وفى أى درجة من العمق والخفاء شرط ألا يتجاوز فهم السامع ، ولا يتعدى التفسير من محتوى الكلام ودلالاته الوصفية حقيقة ومجازا وكناية حيث أن علم الله عين ذاته [2] ولا حد له وسع كل شئ علما [3] .

---

1. مذاهب التفسير الإسلامى للمستشرق إجناز جولد تسهير ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين ، طبعة دار الكتاب العربى سنة 1959م ص 207 .
2. القول بأن علم الله عين ذاته نقلها كوربان عن الفكر الاعتزالى الذى بنى على إثبات الأسماء ونفى الصفات ، ومعنى ذلك أنهم أثبتوا وجود الذات بلا صفة ، وجعلوا أسماء اللّه الدالة علي ذاته أسماء بلا مسمى أى فارغة من الأوصاف فقالوا : عليم بلا العلم وسميع بلا سمع وهكذا ، وهذا مخالف للأصول القرآنية والنبوية لأن الصفات قائمة بالموصوف وليست عينه ، وهى ثابتة لله عز وجل وليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فإذا كان لذات اللّه وجود حقيقى لا يماثل سائر الذوات من المخلوقات فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات ، انظر المزيد فى هذه النقطة ، موقف القاضى عبد الجبار المعتزلى من آراء الأشعرية إعداد محمد عبد الفتاح إمام ، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1983م ص 194وما بعدها .

3. تاريخ الفلسفة الإسلامية ، القسم الأول ، تأليف المستشرق هنرى كوربان ، ترجمة حسن قبيسى وزميله ، الطبعة الأولى 1966 م بيروت ص 10 .

- **شروط قبول التفسير الصوفى :**

يرى الدكتور محمد كمال جعفر أنه لا بد قبل تقرير شروط قبول التفسير الصوفى التنبه إلى أن التفسير الصوفى يرتبط بنوعية اعتقاد المفسر ، ويمكن إجمال تفسيراتهم فى نوعين :

(1- التفسير النظرى : وهو التفسير المبنى على نزعة فلسفية حيث تتوجه الآيات القرآن لديهم وفق نظرياتهم وتتفق مع تعاليمهم .

(2- التفسير الإشارى : هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ولا يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة .

والفرق بين التفسير النظرى و التفسير الإشارى فى أثرهما على تفسير القرآن أن التفسير النظرى يبنى على مقدمة علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولا ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك ، أما التفسير الإشارى فلا يرتكز على مقدمات علمية بل يرتكز على مجاهدات رياضية ، يأخذ الصوفى نفسه بها حتى يصل إلى درجة إيمانية تنكشف له فيها من سبل

العبارات هذه الإشارات ، وتتوالى على قلبه تحليل الآيات من المعانى الربانية .

كما أن التفسير الصوفى النظرى يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من معانى وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل عليه إلا هذا ، على حسب طاقته أما التفسير الإشارى فلا يرى الصوفى أن كل ما يراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شئ ذلك المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره .

ويرى الدكتور جعفر فى شرطه لقبول التفسير الصوفى أن تأويل الصوفية للقرآن أو الفهم الخاص له إذا خلا من أى هدف سياسى أو اجتماعى ، سواء كان لرد اعتبار أو كوثيقة أمن أو بسط سلطان أو كسب ثروة أو احتفاظ بمراكز نفوذ تتعلق بأشخاص أو بجماعات ، إذا لم يكن له مثل هذا الهدف وإذا كان لا يعارض نصا قرآنيا آخر ، ولا يعارض الاستعمال العربى ، ولا يؤدى إلى تحريف أو انحراف ، وإذا كان وجوده يضيف ثروة روحية أو عقلية ، وإذا كان لا يدعى من السلطة ما يجعله أمرا ملزما ، بفرض واحديته فى الأحقية ، إذ كان كذلك فهو تأويل مقبول ، ليست له غاية إلا تعميق الفهم عن الله الذى ما زال كتابه منبعا لا يغيض ومعينا لا ينضب للحقائق والأسرار [1] .

ومن ثم وبناء على ما سبق من الآراء يمكن تقرير الشروط التى يقبل بها التفسير الصوفى فى العناصر الآتية :

1- ألا يكون التفسير الصوفى منافيا للظاهر من النظم القرآنى الكريم .
2- أن يكون له شاهد شرعى يؤيده .
3- ألا يكون له معارض شرعى أو عقلى .
4- ألا يدعى أن التفسير الصوفى هو المراد وحده من الظاهر .
5- ألا يكون التأويل بعيدا لا يحتمله اللفظ فيه تلبيس على أفهام الناس .

فإذا توفرت هذه الشروط ، وليس للتفسير ما ينافيه أو يعاضه من الأدلة الشرعية ، جاز الأخذ به أو تركه ، لأنه من قبيل الوجدانيات ، والوجدانيات

---

1. التصوف للدكتور محمد كمال جعفر ص 26 .

لا تقوم على دليل نظرى ، وإنما هو أمر يبعث على تنمية المشاعر وتحصيل مكارم الأخلاق ، فيجده الصوفى من نفسه ويسره بينه وبين ربه ، فله أن يأخذ به أو يعمل بمقتضاه دون أن يلزم به أحدا من الناس ، والأحرى ألا يسمى هذا اللون من الفهم تفسيرا وإنما يسمى ذكر النظير بالنظير الذى يعتبر صحيحا [1].

. أمثلة على التفسير الإشارى يترك تقديرها للقارئ :

ما ذكره سهل بن عبد الله التسترى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء/81:80] قال : (يعنى إذ تحركت بغيره لغيره عصمنى ، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى ، وقوله والذى يميتنى ثم يحين أى الذى يميتنى بالغفلة ثم يحينى بالذكر)[2] وفى قوله : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل/52] قال : (الإشارة فى البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر ، ومنها ما هو خرب بالغفلة ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم)[3] .

وقال فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا

---

1. انظر السابق ص 160 .
2. تفسير القرآن العظيم ، لسهل بن عبد الله التسترى ، طبعة دار الكتب العربية الكبرى القاهرة سنة 1329هـ ، ص 70.
3. السابق ص 70 .

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات/9] .

ظاهرهما ما عليه من أهل التفسير ، وباطنها هو الروح والعقل والقلب والطبع والهوى والشهوة ، فإن بغى الطبع والهوى

والشهوة على القلب والعقل والروح ، فليتقاتل العبد بسيوف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة ليكون الروح والعقل غالبا والهوى والشهوة مغلوبا [1] .

وأورد أبو نصر السراج الطوسى بعض الأمثلة التى ذكرها الصوفية من طريق الإشارة والاستنباط والفهم الصحيح ، وبين أنهم لم يقدموا فيها ما أخر الله تعالى ولا أخروا ما قدم الله ، ولا نازعوا الربوبية ولا خرجوا عن العبودية ولا يكون فيه تحريف الكلم ، منها قوله تعالى : [الشعراء/88:89] سئل عنه أبو بكر الكتانى فقال : القلب السليم على ثلاثة أوجه من طريق الفهم :

أحدها : هو الذى يلقى الله تعالى عز وجل وليس فى قلبه مع الله شريك .

والثانى : هو الذى يلقى الله تعالى وليس فى قلبه شغل مع الله عز وجل ولا يريد غير الله تعالى .

والثالث : الذى يلقى الله عز وجل ولا يقوم به غير الله عز وجل ، فنى عن الأشياء بالله ، ثم فنى عن الله بالله [2] .

ويعقب السراج الطوسى بقوله : (معنى قوله : فنى عن الله بالله ، يعنى يذهب

---

1. السابق ص 91 .

2. اللمع فى التصوف ص 126.

عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكر الله ورؤية محبة الله ، بذكر الله له ومحبته قبل الخلق ، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه ، وبمحبته لهم احبوه ، وبقديم عنايته بهم أطاعوه) [1] .

ومثل ما أشار الجنيد بن محمد سيد الصوفية فى عصره بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل/88] ، إلى سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع ، وكذلك ما كان يشير به أبو على الروذبارى إذا رأى أصحابه مجتمعين فيقرأ : ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى/29] [2] .

وقال أبو القاسم القشيرى فى قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء/33] ، لا يجوز قتل نفس الغير بغير الحق ، ولا للمرأ أن يقتل نفسه أيضا بغير الحق ، وكما أن قتل النفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات محرم ، فكذلك القصد إلى هلاك المرأ محرم ، ومن انهمك فى مخالفة ربه فقد سعى فى هلاك نفسه ، وقوله : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ أى تسلطا على القاتل فى الاقتصاص منه ،

وعلى معنى الإشارة إن النصرة من قبل الله ومنصور الحق لا تنكسر سنانه ولا تطيش سهامه [3] .

1. السابق ص 126.
2. السابق ص 129 .
3. لطائف الإشارات 2/346 .